

# الرئيس الأذري المشتت بين الولاءات

## إلهام عليف

### من الذي أشعل الفتيل ومن الذي سيكسب من الحرب ضد أرمينيا؟



● عليف لم يمنحه اسمه ذلك الإلهام الكافي لقراءة ما يجري من حوله. وكل ما حمله من إرث والده هو العقلية الاستبدادية التي استمدتها من حكم دكتاتورية البروليتاريا السوفييتية.

التشابكات والتدخلات؛ وهل سيكون بمقدوره تحقيق الانتصار كما وعد شعبه؛ خاصة وأن ولاء المزوج لكل من إيران وتركيا وبالتوازي معهما روسيا، ما يزال يثير العديد من التساؤلات وسط ضجيج المعارك الدائرة هذه الأيام، لا سيما بعد أن نشرت وسائل إعلام تركية اتهامات موجهة إلى إيران بإمداد أرمينيا بالليات عسكرية وسلاح روسي عبر أراضيها، في الوقت الذي تتمتع فيه أذربيجان، البلد ذو الغالبية الشيعية، بعلاقات مميزة مع طهران. إذ يشكل الشيعة نسبة 85 في المئة من إجمالي سكان أذربيجان البالغ عددهم 10 ملايين نسمة. وهي ثاني أعلى نسبة من المسلمين الشيعة في أي بلد في العالم.

الدولية، مستغلا الوضع النفطي لبلاده الذي أتاح له اعتبار أذربيجان لاعبا أساسيا في نظام العلاقات الدولية. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه اليوم على خلفية الصراع الذي تفجر بين أذربيجان والجمهورية الأرمينية؛ كيف سيؤد عليف دفة النزاع القديم المتجدد والأسوأ منذ سنوات، في ظل الأجواء الإقليمية والدولية الملبدة بغيوم سواد حجب الرؤية ودفعت بطرفي النزاع إلى التشدد بمواقفهم ورفع سقف الشروط لوقف الحرب المستمرة منذ أيام وأوقعت الكثير من الضحايا، لاسيما وأن عليف وعد شعبه بتحقيق الانتصار على القوات الأرمينية بحسب تعبيره؛ لقد تسارعت حدة النزاع على خلفية التصريحات المتبادلة بين البلدين، وذلك في ضوء إعلان عليف عن سيطرة قواته على مدينة جبرائيل الاستراتيجية التي يسيطر عليها الجيش الأرميني منذ نحو ثلاثة عقود، وهو الأمر الذي نفتته وزارة الدفاع الأرمينية ووصفت هذه الادعاءات بالزائفة.

الممر الرئيسي للنقل الذي يربط آسيا وأوروبا وسيفتح أفقا واسعة أمام أذربيجان. ونتيجة لسياسة عليف الابن المدروسة جيدا والبعيدة النظر، تطور اقتصاد البلد بسرعة وديناميكية، فعندما انتخب عليف للمرة الأولى، وعد بتأمين 600 ألف فرصة عمل جديدة

أذربيجان بلدا غازيا بالمعنى الاستعاري للتسمية، إذ بات ما يقارب 90 في المئة من السكان يعتمدون على الغاز الطبيعي، إلى جانب تطوير شبكة مياه الشرب وشق الطرق وفق المواصفات الدولية وإصلاح القديم منها، وتركت الزيارات الميدانية التي قام بها عليف أثرا كبيرا على آلية سير العمل بوتيرة عالية، إلى جانب فتح باب مكتبه أمام المسؤولين في الهيئات التنفيذية والمحافظات، الأمر الذي لاقى ترحيبا واسعا، وعزز من مكانة الرئيس لدى الأذريين. اتخذت مبادرات سياسة الطاقة التي اعتمدها الرئيس الشاب ابعدا عالية متحررة من الأطر الإقليمية، وحولت أذربيجان إلى واحدة من الدول الفاعلة على الساحة الدولية، حيث أنجز في عام 2006 إنشاء خط أنابيب النفط باكو - تبليسي -

تخرجه من معهد موسكو الحكومي للعلاقات الدولية التابع لجامعة موسكو عام 1982، ومن ثم حصوله على شهادتي الماجستير والدكتوراه عام 1985، ليصبح محاضرا وإستاذًا في الجامعة ذاتها، لكنه تمكن خلال فترة قصيرة من نزع ثوب الشيوعية عنه وانطلق نحو بناء أذربيجان بثوب جديد، مع احتفاظه بسياسة القبضة المركزية المتشددة. وقبل شهرين من موعد الانتخابات الرئاسية التي كان فيها والده هو المرشح الوحيد، تم تعيين عليف كرئيس للوزراء، ليصبح بعد ذلك المرشح الوحيد لحزب والده في تلك الانتخابات ويتولى الرئاسة خلفا لوالده، إثر تعرض الأخير لإزمات صحية أجبرته على تلقي العلاج في الولايات المتحدة، ليوافيه الأجل هناك بعد معاناة مريرة مع قصور في القلب والكليتين. سيصبح عليف الابن بذلك الرئيس الرابع لأذربيجان خلال الفترة الممتدة من عام 1991 وهو عام تفكك الاتحاد السوفييتي واستقلالها عنه حتى هذه اللحظة، حيث عين إياها مطلوبوف الرئيس الأول للجمهورية الجديدة، مستمرا في فترتين قصيرتين لم تتجاوزا بضعة أشهر قبل عزله، ومن ثم أبو الفضل إلهام عليف، ليتمتع منصب الرئاسة بعدهما الرئيس عليف الأب ثم الابن.

**غياث كنعو**  
كاتب ومحلل سياسي سوري

رغم أنه ولد وعاش في كنف رجل يعد من خريجي المدرسة الأمنية السوفييتية، وكان مسؤولا كبيرا فيها لاحقا، إلا أن ذلك لم يسعف الرئيس الأذري إلهام عليف ليمتلك ذلك الحس الذي كان لدى والده حيدر عليف، ويجنب بلاده الصراعات والتشابكات الإقليمية والدولية. لم يمنحه اسمه أيضا ذلك الإلهام في قراءة ما يجري من حوله. كل ما حمله من إرث والده هو العقلية الاستبدادية الدكتاتورية التي استمدتها من حكم دكتاتورية البروليتاريا السوفييتية، فألى جانب تيوته منصب رئاسة الدولة، فهو أيضا رئيس حزب أذربيجان الجديدة، بعد أن حول نظام الحكم في بلاده إلى جمهورية ملكية على غرار كوريا الشمالية وسورية.

### خلع ثوب الشيوعية

عليف الذي ولد في باكو عام 1961 عاصمة جمهورية أذربيجان السوفييتية آنذاك وأكمل دراسته الإعدادية والثانوية فيها، لم يستطع بداية التخلص من نمط التفكير الحكومي السوفييتي بعد

**أذربيجان مبتلاة بموقع جيوسياسي معرض للهزات والتقلبات السياسية والارتدادية، إلا أنه يسجل لعليف أن البرامج الحكومية المتعلقة بالتنمية الاجتماعية الاقتصادية التي اعتمدها أدت ليس فقط إلى تقليص الفجوة بين المناطق الحضرية والريفية بل حتى إلى القضاء عليها**

ومع ذلك صعد الرئيس الأذري من شروطه المتشددة حيال وقف إطلاق النار ووضع حد لهذا النزاع الذي حصد أرواح المئات من الضحايا، عسكريين ومدنيين من الطرفين، حيث رفض عليف أي نوع من أنواع التفاوض قبل انسحاب أرمينيا من إقليم ناغورني قره باغ من دون شروط وتقديم الاعتذار عن احتلالها لهذا الإقليم، وفي النهاية اعتراف أرمينيا بأن الإقليم أرض أذرية حينها يمكن التفاوض على وقف إطلاق النار ومن غير ذلك لا تفاوض معها. السؤال الأكثر عمقا والذي يفرض نفسه أيضا؛ من هو الطرف الإقليمي أو الدولي الذي أشعل فتيل النزاع بين الجارتين، ووضع عليف في مواجهة رئيس الوزراء الأرميني نيكول باشينيان المتشدد هو الآخر، ليس هذا فحسب، بل سيجد الرئيس عليف نفسه في مواجهة روسيا نفسها وفق الاتفاقيات الثنائية الموقعة بينها وبين أرمينيا، وستوفر لهذه الأخيرة الدعم السياسي وعسكريا، لاسيما وأن روسيا لن تتخلى عن خط البحر الأسود وبحر قزوين بالكامل بعد أن فقدت منطقة القوقاز إثر تفكك الاتحاد السوفييتي.



في البلاد، إلا أنه تجاوز الرقم الذي وعد به، وتم تأمين مليون فرصة عمل جديدة على مدى السنوات الـ14 الماضية. ونتيجة لهذه الخطوات وغيرها، انخفض الفقر من 50 في المئة إلى 5 في المئة، وبات اقتصاد البلد بحسب تقديرات خبراء الاقتصاد الأسرع نموا في العالم، حيث شهد اقتصاد أذربيجان نموا تراوح بين 3 إلى 4 أضعاف.

### وضع لا يحسد عليه

نسخ عليف علاقات خارجية متوازنة إلى حد ما مع دول الجوار آسيا وأوروبا والأميركتين والعديد من دول العالم والمنظمات الدولية، ما منحه فرصة المناورة والتحرك على الساحة

بعيدا عن كل ما سبق عن تحول الرئاسة إلى وراثة في هذه الجمهورية التي تتمتع بموقع جيوسياسي معرض للهزات والتقلبات السياسية والارتدادية منها، إلا أنه يسجل للرئيس عليف الابن الذي يجيد التحدث باللغات الثلاث التركية والروسية والفرنسية أن البرامج الحكومية المتعلقة بالتنمية الاجتماعية - الاقتصادية التي اعتمدها أدت ليس فقط إلى مجرد تقليص الفجوة بين المناطق الحضرية والريفية بل حتى إلى القضاء عليها. وزودت مناطق كثيرة في أذربيجان بالبنى التحتية اللازمة، متقدمة على العديد من المدن والقرى الأوروبية بما فيها الغربية منها. ووفقا لتعليمات عليف، فقد باتت

### موقع جيوسياسي حساس

جيبان. وهكذا، وبعد أن تم توقيع "عقد القرن" بدأ تدفق الاستثمارات الأجنبية إلى أذربيجان التي باتت تلعب اليوم دورا هاما في ضمان أمن الطاقة في أوروبا، لاسيما بعد أن تم إطلاق "تاناب"، بحضور الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، المشروع الذي يعد واحدا من أكبر مشاريع الطاقة في العالم بين أذربيجان وتركيا.



● علاقات أذربيجان الخارجية يحرص عليف على جعلها متوازنة قدر الإمكان، ما منحه فرصة المناورة، مستغلا الوضع النفطي لبلاده.

ولكن لا يغيب عن الحسبان أن الأذريين ليسوا محصورين داخل تلك الجمهورية الصغيرة وحسب، بل إنهم يجسدون في إيران ثاني أكبر قومية بعد الفرس بنسبة 16 في المئة، وهم يتمتعون بمكانة مهمة في الدولة، ومناطقهم تعد الأكثر تطورا ورخاء، ما يجعل من حسابات نظام الولي الفقيه تختلف هنا، ولا تتجه نحو ضربة شيعية العالم كما تزم. وعندئذ يصبح دعم أذربيجان تعززا لتلك القومية التي تخير قلق السلطات في الجمهورية الإسلامية التي تعتبر نفسها قطب الشيعة في العالم. وفي المحصلة هل سينجح عليف في الحرب كما نجح في الاقتصاد، وينتهي هذا النزاع بأقل الخسائر المحتملة، أم أنه سيظل مصرا على عدم وقف القتال حين انسحاب القوات الأرمينية من الإقليم؛ وفي الأخير هل سيكون بمقدور تركيا الذهاب بعيدا في دعمها ومساندتها لأذربيجان؟ ختاماً يمكن القول إن الرئيس الأذري وضع في موقف لا يحسد عليه، قد يؤدي إلى وضع الأطراف الدولية يدها على هذا البلد الغني بالنفط والغاز، قادم الأيام كفييل بالجواب على مدى قدرة عليف على الخروج منتصرا من هذا النزاع الذي يسدو وكأنه كامن تحت الرماد يشتعل حين الطلب.